

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩١ - سُورَةُ الشَّمْسِ

مكية ، وآيها خمس عشرة .
وقد تقدم حديث جابر الذي في الصحيح (١) أن رسول الله ﷺ قال لعازل : هلا صليت
بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى .

(١) أخرجه النسائي في : ١١ - كتاب الافتتاح ، ٦٣ - باب القراءة في المغرب بسبح
اسم ربك الأعلى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا)

[٢] (وَالْقَمَرَ إِذَا تَلَّهَا)

[٣] (وَالنَّهَارَ إِذَا جَلَّهَا)

[٤] (وَاللَّيْلَ إِذَا يَمُشَاهَا)

[٥] (وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا)

[٦] (وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَاهَا)

[٧] (وَالنَّفْسَ وَمَا سَوَّاهَا)

[٨] (فَالهَمَّاهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

« وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا » أى ضوءها إذا أشرقت . قال الراغب : (الضحى) انبساط الشمس وامتداد النهار، وبه سمي الوقت . وحقيقته - كما قال الشهاب - تباعد الشمس عن الأفق المرئى وبرزها للناظرين . ثم صار حقيقة في وقته . وقال الإمام : يقسم بالشمس نفسها ظهرت أو غابت لأنها خلق عظيم . ويقسم بضوئها لأنه مبعث الحياة ومجلى الهداية في عالمها الفخيم . وهل كنت ترى حيا أو تبصر ناميا، أو هل كنت تجد نفسك، لولا ضياء الشمس، جل مبدعه؟ « وَالْقَمَرَ إِذَا تَلَّهَا » أى تبع الشمس ، قال الإمام : وذلك في الليالى البيض ، من الليلة الثالثة عشرة من الشهر إلى السادسة عشرة . وهو قسم بالقمر عند امتلائه أو قربته مع الامتلاء . إذ يضىء الليل كله مع غروب الشمس إلى الفجر . وهو قسم في الحقيقة بالضياء في طور آخر من أطواره . وهو ظهوره وانتشاره الليل كله .

« وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىهَا » أظهر الشمس . وذلك عند انتفاخ النهار وانبساطه . لأن الشمس تنجلي في ذلك الوقت تمام الانجلاء . وفي هذه الأقسام كلها - كما قاله الإمام - إشارة إلى تمظيم أمر الضياء وإعظام قدر النعمة فيه ، وافت أذهاننا إلى أنه من آيات الله الكبرى ونعمه العظمى . وفي قوله (إِذَا تَجَلَّىهَا) بيان للحالة التي ينطق فيها النهار بتلك الحكمة الباهرة والآية الظاهرة . وهي حالة الصحو . أما يوم الغيم الذي لا تظهر فيه الشمس ، فخاله أشبه بحال الليل الذي يقسم به في قوله « وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا » أى يغشى الشمس ويعرض دون ضوءها فيحجبه عن الأبصار . وذلك في ليالي الظلمة الحالكة المشار إليها بقوله في الآية المتقدمة ^(١) (وَلَيَالٍ عَشْرٍ) على القول الأخير . قال الإمام : ولقلة أوقات الظلمة، عبر في جانبها بالمضارع المفيد لاحاق الشيء وعروضه متأخرا عما هو أصل في نفسه . أما النهار فإنه يجلي الشمس دائماً من أوله إلى آخره . وذلك شأن له في ذاته . ولا ينفك عنه إلا لعارض . كالغيم أو الكسوف قليل العروض . ولهذا عبر في جانبه بالماضي المفيد لوقوع المعنى من فاعله، بدون إفادة أنه مما ينفك عنه .

« وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا » أى ومن رفعها ، وصيرها بما فيها من الكواكب ، كالسقف أو القبة المحيطة المزينة المحيطة بنا . ف (ما) موصولة بمعنى (من) أو ثرت لإرادة الوصفية . أى والتقدير الذى أبدع خلقها .

قالوا : وذكر (مَا بَنَاهَا) مع أن في ذكر (السَّمَاءَ) غنية عنه ، للدلالة على إيجادها وموجدتها صراحة (وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّهَا) أى بسطها من كل جانب ، لافتراضها وازدراعها والضرب في أكنافها .

قال الإمام : وليس في ذلك دليل على أن الأرض غير كروية ، كما يزعم بعض الجاهلين . أى بتحريفه الكلم عن معناه المراد منه . « وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا » أى خلقها فعدل خلقها

(١) [٨٩ / الفجر / ٢] .

ومزاجها ، وأعدّها لقبول السكّال « فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا » أى أفهمها إياها، وأشعرها بهما، بالإلقاء الملصكيّ والتمكين من معرفتهما، وحسن التقوى وقبح الفجور بالعقل الهيوالاتيّ.
لطيفة :

جوز في (ما) كونها مصدرية في السكّال ، ولا يضره خلو الأفعال من فاعل ظاهر ومضمر إذ لا مرجع له . وعطف الفعل على الاسم لأنه يكفي لصحة الإضمار دلالة السياق . وهي موجودة هنا . وأن العطف على صلة (ما) لا عليها مع صلتها . فكأنه قيل : ونفس وتسويتها ، فالهامها الخ . وعطف الفعل على الاسم ليس بفاسد . نعم في الوجه الأول توافق القرائن وهو أسدّ . وأما الثاني فوجه يتسع للنظم الكريم له . وأما تفكير (نفس) فالتكثير أو التعظيم .
القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

[١٠] (وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[١١] (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا)

[١٢] (إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا)

« قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا » أى زكى نفسه وطهرها من رجس النقائص والآثام . أو تمّاها بالعلم والعمل والوصول إلى السكّال وبلوغ الفطرة الأولى « وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » أى أخلمها ووضع منها ، بخذلانه إياها عن الهدى حتى ركب المعاصى وترك طاعة الله تعالى . هذا ما قاله ابن جرير^(١) . وقال غيره : أى نقص تركيبتها وأخفى استمدادها وفطرتها التي خلقت عليها بالجهالة والفسوق . وهو مأخوذ من (دس الشيء في التراب) أى أدخله فيه وأخفاه . وأصل (دسى) دسّس . كعتقضى البازى ، وجملة (قَدْ أَفْلَحَ) الخ جواب القسم وحذف اللام للطول .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢١٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

قال القاضى : وكأنه لما أراد به الحث على تكميل النفس والمبالغة فيه ، أقسم عليه بما يدلهم على العلم بوجود الصانع ووجوب ذاته وكال صفاته الذى هو أقصى درجات القوة النظرية ويذكركم عظام الإله ليحملهم على الاستغراق فى شكر نعمائه الذى هو منتهى كالات القوة العملية .

وذهب الزمخشريّ إلى أن هذه الجملة كلام تابع لقوله (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) على سبيل الاستطراد . وجواب القسم محذوف تقديره : لِيُدْمِدَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ . أى على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله ﷺ . كما دمدم على ثمود ، لأنهم كذبوا صالحاً عليه السلام . وقد دل عليه قوله تعالى « كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا » أى بسبب طغيانها ومجاوزتها الحدّ فى الفجور . ف(الطغوى) مصدر . وجوز أن يراد به العذاب نفسه، على حذف مضاف أو بدونه، مبالغة . كما يوصف بغيره من المصادر . أى كذبت بما أوعدت به من عذابهاذى الطغوى، كقوله (فَأَهْلِكُوكُمْ بِالطَّاغِيَةِ) فالطغوى على هذا من التجاوز عن الحدّ والزيادة من العذاب . والباء صلة (كذبت) . وقوله تعالى « إِذْ أُنْبِئَتْ أَشَقَمَهَا » ظرف لـ (كذبت) أو (طغوى) أى حين قام أشقى ثمود لعقر ناقة صالح عليه السلام . وكانوا نهوا عن مسها بسوء ، وأنذروا عاقبة المخالفة ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا)

[١٤] (فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَذَمِّمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا)

[١٥] (وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا)

« فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ » يعنى صالحاً عليه السلام لقومه - « نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا » أى احذروا واتقوا ناقة الله التى جعلها آية بينة وشرها، الذى اختصه الله به فى يومها . وكان عليه السلام تقدم إليهم عن أمر الله أن للناقة شرب يوم ولهم شرب يوم آخر، غير يوم الناقة .

كما بينته آية الشعراء . قال (١) (هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَاءَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يُومٍ عَظِيمٌ) أى لا تؤذوا الناقة ولا تتعدوا عليها فى شربها ويوم شربها « فَسَكَدَ بُؤُهُ » أى فيما حذرهم منه من حلول العذاب إن فعلوا « فَعَقَرُوهَا » أى قتلوها .

قال فى النهاية : أصل العقر ضرب قوائم البعير أو الشاة بالسيف وهو قائم . ثم اتسع حتى استعمل فى القتل والهلاك . وذلك أنهم أجمعوا على منعها الشرب ورضوا بقتلها . وعن رضا جميعهم قتلها فأنزلها وعقرها من عقرها . ولذلك نسب التكذيب والعقر إلى جميعهم « فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمُ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ » أى أهلكهم وأزعجهم بسبب كفرهم به وتكذيبهم رسوله وعقرهم ناقته ، استهانة به واستخفافا بما بعث به . وقيل : دمدم أطبق عليهم العذاب . وقيل : الدمدم حكاية صوت الهدمة « فَسَوَّاهَا » أى فسوى الدمدم عليهم جميعا ، فلم يفلت منهم أحد . بمعنى جعلها سواء بينهم أو الضمير لثمود . أى جعلها عليهم سواء « وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا » أى لا يخشى تبعه إهلاكم لأنه العزيز الذى لا يغال .

قال الشهاب : أى لا يخاف عاقبتها كما يخاف الملوك عاقبة ما فعله . فهو استعارة تمثيلية لإهانتهم وأنهم أذلاء عند الله . فالضمير فى (يخاف) لله وهو الأظهر . ويجوز عوده للرسول ﷺ . أى أنه لا يخاف عاقبة إنذاره لهم وهو على الحقيقة ، كما إذا قيل : الضمير للأشقى أى أنه لا يخاف عاقبة فعله الشنيع . والواو الحال أو الاستئناف .

تفنيه :

قال ابن القيم فى (مفتاح دار السعادة) : المقصود أن الآية أوجبت لهم البصيرة فأثروا الضلالة والكفر عن علم ويقين . ولهذا ، والله أعلم ، ذكر قصتهم من بين قصص سائر الأمم فى سورة (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) لأنه ذكر فيها انقسام النفوس إلى الزكية الراشدة المهتدية ،

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٥٥ ، ١٥٦] .

وإلى الفاجرة الضالة الغاوية . وذكر فيها الأصلين : القدر والشرع . فقال ^(١) (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) فهذا قدره وقضاؤه ثم قال ^(٢) (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) فهذا أسرته ودينه . وتمود ، هدامم فاستجبوا العمى على الهدى . فذكر قصتهم ليبين سوء عاقبة من آثر الفجور على التقوى ، والتدسية على التزكية . والله أعلم .

• [(٢) / ٩١ / الشمس / ٩] .

• [(١) / ٩١ / الشمس / ٨] .